نعوم تشومسكي

نعوم تشومسكي أستاذ في معهد ماسيتشيوستس للتقنية (MIT) ألّف أكثر من 90 كتاباً في حقول علم اللغات، والفلسفة، وتاريخ الفكر الإنساني، إضافة إلى القضايا الدولية والسياسية الخارجية الأمريكية. أحدث كتبه تتضمن: 9/11 (سفن ستوريز برس، 2003)، القراصنة والأباطرة، قديماً وحديثاً (ساوث إند برس، 2003)، وكتاب القوة والإرهاب (سفن ستوريز برس، 2003).

جيرمي إيرب: وصلت إلينا معلومات من داخل حكومة بوش نفسها، وتحديداً من وزير المالية السابق بول أونيل ومن رئيس قسم مكافحة الإرهاب ريتشارد كلارك، تفيد بوجود أجندة مسبقة تدفع باتجاه احتلال العراق- هذه الأجندة كانت موجودة قبل أحداث 11 سبتمبر. هل تشاهد في السياسة الخارجية الأمريكية تطبيقا لهذه الأجندة؟

لقد عبروا عن ذلك بملء أفواههم، بكل صراحة ووضوح، وأراحونا من عناء التكهن. فقد أعلنت وثيقة إستراتيجية الأمن القومي الصادرة في سبتمبر من عام 2002 وبمنتهى الصفاقة، برنامج الهيمنة على العالم. والحقيقة أن المبادئ التي تضمنتها تلك الإستراتيجية ليست جديدة. وبإمكانك أن تجد سوابق لها في إدارتي كلينتون وكينيدي، وإلى عهد الحرب العالمية الثانية. إلا أن المبدأ واحد، ويتمحور بشكل أساسي حول فكرة هيمنة الولايات المتحدة على العالم وامتلاكها الحق باستخدام القوة بمشيئتها دون الحاجة إلى مرجعية من المنظمات أو المواثيق الدولية، وبدون سبب مقنع لتحقيق تلك الهيمنة. وهذا مبدأ قديم في حد

ذاته، إلا أنه تم التعبير عنه بطريقة فظة غير عادية في إستراتيجية الأمن القومي لعام 2002.

وجاء ذلك الإعلان صريحاً أمام الملأ ليقول للقاصي والداني بأن هذه هي الطريقة التي سنحكم بها العالم. وليعلم الجميع ذلك. ولإضفاء "المصداقية" على هذا المذهب، على اصطلاح الدبلوماسيين، فإنه يتحتم أحياناً أن تقوم "بإجراء تأديبي" لتظهر أنك تعني ما تقول ويكون ذلك عبرة للغير. وجاء الإعلان عن احتلال العراق متزامناً مع إصدار إستراتيجية الأمن القومي تلك. وفُهم ذلك الإعلان حول العالم، وفي دوائر السياسة الخارجية هنا في الولايات المتحدة، على أنه دليل على حقيقة أن حكومة الولايات المتحدة ستستخدم القوة بإرادتها المنفردة لتحقيق أهدافها- وفي هذه الحالة، تأمين موقع قدم مهم لها في إحدى المناطق الرئيسة لإنتاج النفط في العالم. وأنها، أي الولايات المتحدة، ستقوم بذلك دون الحاجة إلى مسوّغ قانوني دولي، ولا إلى مستند شرعي دولي. وعوملت الأمم المتحدة بازدراء مكشوف، وقيل لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة أمامكم خياران: إذا أردتم أن يكون لكم اعتبار فعليكم مباركة ما ننوي فعله، أو أن تكونوا مجرد "ناد للمناظرات" على حد وصف كولن باول. وليس لرأي الدول الأخرى في هذه الإستراتيجية أي أهمية أو اعتبار. ولا للرأي العام العالمي، بل ولا حتى للرأي العام الأمريكي. فقد كانت الإدارة عازمة ومصرّة على فعل ما تريد.

جيرمي إيرب: هل كان هناك مؤشرات أخرى تدل على إصرار الحكومة على هذا العمل الانفرادي بهذه العدوانية والمجاهرة للتدخل في العالم مع الحلفاء أو بدونهم وعلى المكشوف؟

لقد كان ذلك واحداً فقط من بين مجموعة من الإجراءات التي اتخذت دفعة واحدة خريف عام 2002. وكان هناك سلسلة من الإجراءات التي استهدفت الأمم

المتحدة، وإعاقة عدد من المفاوضات والاتفاقات الدولية. وفي واقع الأمر جرى توقيف المفاوضات المتعلقة بنزع السلاح، والمعاهدات التي تحرم الحرب الجرثومية. وقامت الولايات المتحدة بالإعلان عن عزمها التوسع في برامجها لتسليح الفضاء، لكي تنتقل، وعلى حد تعبير قائد سلاح الجو، من السيطرة على الفضاء إلى امتلاكه. وهذا ينسجم مع التوجه الجديد للأمن القومي والذي يقضي بأن الولايات المتحدة سوف لا تكتفي باستخدام القوة بحسب مشيئتها وحسب، بل ستستخدم القوة إذا لزم الأمر، ضد أي طرف يمكن أن يشكل تحدياً للهيمنة الأمريكية. وفيما يتعلق بمسألة الفضاء، فإنه يعني الانتقال من السيطرة إلى الملكية.

والسبب وراء هذه العدوانية المتشددة والخوف الذي انتشر سريعاً حول العالم هو أن احتلال العراق فُهم منه أنه جاء ليبرهن للعالم أن برنامج الهيمنة العالمية يجب أن يحمل محمل الجد. وقد تجلى هذا الأمر بوضوح، ومن جوانب عدة، عن طريق ردة الفعل التي أعقبت الفشل في العثور على أسلحة دمار شامل في العراق. والجانب الأهم في ذلك ليس أن الحكومة كشفت عن عجز الاستخبارات، أو الكذب أو غير ذلك. مع أن ذلك كله حدث فعلاً، إلا أن أهميته تبدو هامشية مقارنة بالقضية الحقيقية وهي تغيير المذهب. فالمذهب الذي كان يجسد التوجه الرسمي في سبتمبر 2002 هو أن الولايات المتحدة ستستخدم القوة لمنع أي حكومة تسعى إلى امتلاك أسلحة دمار شامل يمكنها، بحسب زعمهم، أن تهددنا، وسنستخدم القوة العسكرية الوقائية للحيلولة دون وقوع ذلك. وبعد أن عجزت الحكومة عن اكتشاف أي أثر لبرامج أسلحة الدمار الشامل، تغير "المذهب" إلى الإعلان بأن الولايات المتحدة لها حق استخدام القوة ضد أي شخص لديه النية والقدرة على إنتاج أسلحة دمار شامل. والواقع أن أي شخص يملك تلك القدرة. فالمدرسة الثانوية المحلية في كامبريدج(*) لديها المقدرة على

(*) اسم بلدة في ولاية ماسيتشيوستس.

تحضير أسلحة دمار شامل. والنوايا هي بحسب الشخص الناظر. لذلك، فليعتبر كل شخص في العالم.

إذن، فهذا تحذير لكل شخص في العالم مفاده أنه إذا لم يرق لنا ما تفعله وإذا كنت تقف في طريقنا فنحن نملك الحق في استخدام قوتنا العسكرية الكاسحة للتأكد من انصياعك لأرادتنا. هذا هو المذهب. ولم يكن بالإمكان الإفصاح عنه بأوضح من ذلك.

جيرمي إيرب: هل هناك وسائل أخرى كشفت عن هذا البرنامج- الذي يعرف الآن "بمذهب بوش" وكان في السابق يعرف بمذهب ولفوويتس- وهل هناك وسائل أخرى أفصحت عن وجوده وتطوره؟

لقد عملت التطورات اللاحقة على صقل هذا المذهب. فعلى سبيل المثال، وفي مرحلة الحشد للحرب، كان هناك انقسام في المواقف حول العالم. فقد كان هناك شبه إجماع شعبي عالمي لم يكن له نظير في التاريخ على معارضة الحرب. وأظهرت استطلاعات الرأي التي أجرتها مؤسسة غالوب، والتي تجاهلتها كلياً وسائل الإعلام في الولايات المتحدة، أنه لا يوجد مكان في العالم يمكنك أن تجد فيه نسبة تصل حتى إلى 10٪ من السكان يؤيدون برنامج التدخل العسكري الذي يسعى بوش وبلير إلى تنفيذه. إلا أن مواقف الحكومات كانت مختلفة: فبعض الحكومات وقفت مع المعارضة الشعبية في بلادها ضد الحرب، ورفضت المشاركة في الهجمة. بينما خالفت حكومات أخرى موقف شعوبها وقبلت بتلقي الأوامر من كروفورد(*) في ولاية تكساس بدلاً من الإصغاء لثمانين في المائة من شعوبها. وكان من المثير للدهشة مشاهدة ردة الفعل هنا في الولايات المتحدة، ليس فقط داخل الحكومة ولكن في أجهزة الإعلام وتعليقات المحللين وغيرهم، إذ كنا نسمع

(*) اسم البلدة التي توجد فيها مزرعة بوش.

obeikandl.com

عن التمييز بين "الدول السيئة" في "أوروبا العجوز" والتي وقفت مع ثلاثة أرباع سكانها، وهؤلاء يمثلون الطرف الشرير، وفي المقابل هناك "الطرف الخيّر" مثل بيرليستوني(*) الذي خالف نسبة أكبر من المعارضين للحرب في بلاده ورضي بأن ينصاع لأوامر واشنطن. وهذا يعكس موقفاً صارخاً تجاه الديمقراطية من قبل الحكومة والإعلام والمحللين وغيرهم. وهي رسالة في غاية الوضوح ويصعب أن تفوت أحداً. وإني لأستغرب كيف فاتهم معنى هذه الرسالة. ولجعل الأمر أكثر درامية، فإن الشخص البارز الذي يعتبر المنظر الأكبر وحامل لواء نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط وهو بول ولفوويتس، قد عبر عن موقفه تجاه الديمقراطية بخصوص الموقف التركي. فقد تعرضت تركيا لهجوم شرس في الولايات المتحدة وعلى مستويات عريضة حتى في الإعلام الليبرالي، على الموقف الذي اتخذته حكومتها والذي ينسجم مع رأي 95٪ من السكان بدلاً من الانصياع لأوامر واشنطن. وذهب ولفوويتس إلى أبعد من ذلك بكثير. حيث نعى على الجيش التركي عدم تدخله لمنع الحكومة من تبني موقف 95٪ من السكان، ووجه لهم الأمر بالاعتذار للولايات المتحدة والتعهد بمساعدة الولايات المتحدة في مغامراتها المستقبلية. هذه هي الديمقراطية كما يفهمها المنظر الأكبر الذي يريد نشر الديمقراطية في العالم وفي الشرق الأوسط.

ولعل الإعلام الأمريكي والمثقفين الأمريكان يفضلون عدم مشاهدة هذه المفارقة، إلا أن بقية العالم تراها كما ترى الشمس في وضح النهار. وهذا ما يفسر النتائج المذهلة والمثيرة لاستطلاعات الرأي في أوروبا والتي تظهر فيها الولايات المتحدة إلى جانب كوريا الشمالية وإيران في قائمة الدول التي تهدد السلام العالمي. وأن الدولة الوحيدة التي تمثل الخطر الأكبر على السلام في أوروبا هي إسرائيل. ولو فكرت ملياً في ذلك، فإن إسرائيل لا تشكل خطراً على

(*) رئيس الوزراء الإيطالي في ذلك الوقت.

obeikandl.com

السلام، فهي دولة صغيرة، بل الخطر على السلام هو الدعم الأمريكي لإسرائيل، وبدون ذلك فهي لا تشكل خطراً(*). ولو ذهبت إلى جيراننا في أمريكا اللاتينية وهم الأكثر خبرة في التعامل مع السطوة الأمريكية من أي طرف آخر في العالم، لوجدت أن الأرقام مذهلة أيضاً. وإذا أسعفتني الذاكرة، فإن نسبة المعارضة

(*) من الواضح أن الأستاذ تشومسكي (ومعه معظم مفكري اليسار اليهودي الأمريكي) وعلى الرغم من انتقادهم للسياسات والممارسات الإسرائيلية وحزب الليكود، إلا أنهم يؤيدون الرأي القائل بأن إسرائيل ما هي إلا أداة استعمارية انتقلت من يد المستعمر الأول بريطانيا إلى يد المستعمر الجديد أمريكا، وأنها مجرد (وكيل بالأجرة) يعمل لصالح الطرف الذي يدفع أتعاباً أكثر، وأن الشر والتخريب الذي تقترفه إسرائيل يجب أن ينسب إلى الطرف الذي ترتكب لصالحه هذه الأعمال، وليس إلى هذه الدولة الصغيرة المسكينة. وأن أمريكا هي التي تسخّر إسرائيل لخدمة مصالحها (الرأسمالية) وليس العكس. ويشيع هذا الرأي - مع الأسف- لدى كثير من المثقفين العرب. ومع أن المقام لا يتسع هنا لدحض وجهة النظر هذه، ولكنني أكتفي بإحالة القارئ إلى ما كتب حول دور اللوبي الإسرائيلي وتأثيره في السياسة الخارجية الأمريكية وتوجيه هذه السياسة بما يتناقض مع جوهر المصالح الأمريكية في العالم العربي وخصوصاً البحث القيّم الذي نشره مؤخراً كل من الأستاذين جون ميرشمير من جامعة شيكاغو وستيفن والت من جامعة هارفارد بعنوان اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأمريكية. ولو كانت العلاقة الأمريكية مع إسرائيل من صلب المصالح الأمريكية لما دعت الحاجة إلى وجود مثل هذه اللوبي الذي ينضوي تحت لوائه أكثر من مائة منظمة ناشطة في الولايات المتحدة تعمل ليل نهار للإبقاء والمحافظة على زخم الدعم الأمريكي للدولة العبرية. وهذا على العكس من الدول التي يخدم التحالف معها فعلاً المصالح الحيوية الأمريكية. ولذلك فنحن لم نسمع قط بوجود لوبي كندي أو لوبي بريطاني-على سبيل المثال- في واشنطن لدعم العلاقات الأمريكية - البريطانية أو العلاقات الأمريكية - الكندية، لأن المسئولين هناك يدركون أهمية المصالح المشتركة مع هاتين الدولتين. وما الحرب في العراق والتي هي موضوع هذا الكتاب إلا دليلاً آخر على نقض مقولة أن أمريكا تسخر إسرائيل لمصالحها. لأن المستفيد الأكبر من تلك الحرب هي إسرائيل و تخدم بوضوح الأهداف الإستراتيجية الإسرائيلية على حساب المصالح الأمريكية والمال الأمريكي والجنود الأمريكان. وقد ورد في سياق هذه المقابلات الإشارة إلى دور المحافظين الجدد وهم في غالبيتهم من المفكرين اليهود والمتصلين بروابط عضوية ووجدانية بالكيان الإسرائيلي في هذه الحرب. وقد وردت الإشارة في هذا الكتاب وفي أكثر من موضع إلى أن أصل فكرة الحرب على العراق وتغيير النظام فيه يعود إلى دراسة عنوانها انطلاقة نظيفة ((Clean Breakأعدها معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية المتقدمة في القدس ونشر عام 1996 لصالح بنجامين نتنياهو. وشارك في إعدادها كل من دوغلاس فايث وريتشارد بيرل وديفيد وورمزر وهم من رموز المحافظين الجدد ويعملون الآن في حكومة بوش. ومن الطبيعي أن يحرص المنظرون الصهاينة على محاولة طمس هذه الحقيقة باستخدام مجموعة من الأقنعة كقناع النفط أو الحرب على الإرهاب أو الديمقراطية الخ لصرف الأنظار عن هذه الأجندة.

الشعبية للسياسات الأمريكية بلغت 87٪ في القارة اللاتينية. وكلما اقتربت أكثر إلى حدود الولايات المتحدة ازدادت المعارضة، فقد بلغت في المكسيك 95٪ أو قريباً من ذلك، وكذلك في البرازيل. وهذه الأرقام صارخة جداً، وظهرت بهذه الصورة في السنوات الأخيرة فقط. وهي تعكس ردة فعل على البرامج التي أعلنت عنها الولايات المتحدة وبدت عازمة على تنفيذها. والشيء المثير حول هذا الموضوع هو أن الحكومة الأمريكية مجبرة الآن على التراجع. إذ لا يمكن السيطرة على العالم بتلك السهولة، وكما تبين لهم في العراق فإنه ليس من السهل حتى إدارة ذلك البلد الصغير نسبياً، وذلك على الرغم من أن احتلاله ظهر وكأنه أسهل احتلال عسكري في التاريخ. إلا أنه ليس كذلك. ويوماً بعد يوم تتراجع الحكومة عن مواقفها المتشددة مضيفة عليها بعض التحسينات التجميلية من أجل الاستمرار فيها.

واليوم كان الخبر الذي تصدر الصفحات الأولى من الصحف الأمريكية موافقة السلطة الأمريكية الحاكمة في العراق على مطالب العراقيين بمشاركة أوسع في العملية الديمقراطية. وكانت الولايات المتحدة تعارض بشدة أي نوع من العملية الديمقراطية في العراق لأنها تريد التأكد من سيطرتها على العراق. والعراقيون يعارضون ذلك، والمعارضة قوية، وتحاول الولايات المتحدة أن تتراجع وعلى حد تعبير الصحافة لكي تجعل الوضع يبدو أكثر ديمقراطية. ولكن سيتحتم عليهم فعل شيء ما بسبب شدّة المعارضة للنظام المفروض. ولذلك فهم الآن يحاولون إسناد دور شكلي للأمم المتحدة كي تبدو الأمور ديمقراطية.

جيرمي إيرب هل لك أن تحدثنا عن دور ولفوويتس في هذا الشأن؟

من الواضح أن الحكومة سوف تتراجع عن الموقف الانتقامي المتشدد الذي اتخذه بول ولفوويتس. وهو واحد من أشد المتطرفين ضيقي الأفق في الإدارة الأمريكية. وكان يصر على إصدار إعلان يقول بأن الدول التي دعمت الولايات

المتحدة في حملتها العسكرية ضد العراق هي فقط التي يحق لها المشاركة في عقود إعادة أعمار العراق. وهذا الموقف هو في غاية الشناعة، وقد وجدت الحكومة نفسها الآن مجبرة على التراجع عنه لأن بقية العالم لن تنبطح على الأرض وتقول:"هيا، تعالوا دوسوا على وجوهنا إذا كان ذلك يحلو لكم". وهذا التراجع تجده يتكرر في مسألة بعد أخرى.

نعم الولايات المتحدة لديها هيمنة عسكرية كاسحة حول العالم، وليس لقوتها العسكرية أي منافس ولو من بعيد. ولكن إذا نظرت إلى المسألة من أبعاد أخرى فالأمر يختلف. فمن حيث القوة الاقتصادية، نجد أن للولايات المتحدة أقران متساوون معها تقريباً، فآسيا وأوروبا هما قوتان اقتصاديتان على قدم المساواة مع الولايات المتحدة. ويصدق هذا التشبيه من جوانب أخرى. وحتى المناطق الأصغر من العالم لا يمكن إخضاعها بهذه السهولة بالقوة فقط. فمثلاً، منطقة الأندين المجاورة للولايات المتحدة من الجنوب، وهي منطقة يتوقع المرء أن تكون الهيمنة عليها سهلة باستخدام التخويف والانقلابات العسكرية وغيرها. إلا أنها منطقة خارج نطاق السيطرة الآن، من بوليفيا إلى فنزويلا. وهي تسقط بيد القوى الشعبية التي يصعب على الولايات المتحدة أن تسيطر عليها.

كان احتلال العراق انتصاراً سهلاً بالطبع؛ ولم تكن حكومة بوش لتقدم على مهاجمة العراق لو لم تكن تعلم أن البلد أعزل بالكامل. ومن المذهل حقاً أن الحرب استغرقت أكثر من ثلاثة أيام. ومع ذلك، كان الأمر سهلاً. وكانت المشكلة تكمن في السيطرة على البلاد بعد الاحتلال، كما أن المشكلات التي برزت في محاولات السيطرة، وهي مشاكل مزمنة، قد أحدثت تراجعاً في الاندفاع العدواني لإدارة بوش. ولولا ذلك، وبحسب تقديري، لكان هناك تدخل آخر، وقد يحدث ذلك في النهاية، ولكن الفرص ما زالت مهيأة. إن طبيعة هذه السياسات ليست غامضة، فهي معلنة بشكل واضح جداً.

جيرمي إيرب: من القضايا التي نحاول تجليتها هي الدافع الذي يحرك السياسة الخارجية لهذه الحكومة. وثمة تساؤلات تتعلق بالأيديولوجية التي تتبناها هذه الحكومة، هل هذه الأيديولوجية سياسية، وما مدى واقعيتها، بالطبع هناك مصالح مختلفة تتنافس فيما بينها داخل هذه الحكومة. وعندما نقول هناك تراجع الآن، فهل تعني أن هذا يمثل إسكات العناصر الأكثر تطرفاً في هذه الحكومة؟ كيف تقرأ ذلك، وما هو برأيك الدافع الأساسي الذي يحرك السياسة الخارجية الآن؟

أعتقد أن التراجع في بعض المواقف يعود إلى الفشل الذي لحق بالسياسات المتطرفة والعدوانية والمتغطرسة. وهي السياسات التي كانت تعتقد بنجاحها العناصر الأكثر تطرفاً في الحكومة مثل رمسفيلد وولفوويتس وتشيني وغيرهم. ورأينا أن تلك السياسات أخفقت بسهولة، لذلك اضطروا إلى التراجع قليلاً وتعديل بعض التكتيكات. فعليك أن تعيش في هذا العالم بغض النظر عن مدى تطرفك. وبالنسبة للأيديولوجية التي تقف وراء الحكومة فإني أعتقد أن هناك تفاوتاً. هذا على صعيد السياسة الدولية. أما على الصعيد المحلي فالأمر أكثر أهمية، فهم عاقدون العزم على تفكيك الإنجازات التقدمية التي تحققت في القرن الماضي. فخلال القرن الماضي، شهدت البلاد كفاحاً شعبياً على مستوى عريض بهدف حماية أفراد الشعب من قوى السوق المهلكة ومن القوة المتنامية للشركات العملاقة والتي كان لها آثار مدمرّة. وتم وضع سياسات ضريبية تقدمية، ومظلة أمن اجتماعي، وإجراءات الصفقة الجديدة، وبعض سياسات الرعاية الصحية والمدارس الجديدة وغير ذلك، وهذه الحكومة عاقدة العزم على نقض هذه الإنجازات جميعها.

جيرمي إيرب: ما هو نوع النهج المحافظ الذي يتبعه هؤلاء؟

obeikandl.com

هذه المجموعة لا تؤيد الدور المحدود والمقلص للحكومة. وهؤلاء ليسوا محافظين. وفي الواقع أن نفقات الحكومة الفدرالية تضاعفت على وتيرة أسرع في عهد حكومة بوش من أي حكومة أخرى منذ عهد ريغان. وهم الأشخاص أنفسهم الذين كانوا في حكومة ريغان. ويعتقدون اعتقاداً راسخاً بالحكومة القوية والمتسلطة، الحكومة التي تعمل لصالح الأغنياء والأقوياء. أما ما يحدث لعموم الشعب فهو أمر ثانوي. وتتألف هذه الحكومة من أكثر العناصر تشدداً في حكومتي ريغان وبوش الأول، وهي أشد التزاماً بذلك الهدف. إنهم يسعون إلى تقويض البرامج الاجتماعية التي تحمي الطبقة الضعيفة في المجتمع: كالنظام المحدود للرعاية الصحية، ومنظومة الأمن الاجتماعي، والمدارس إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ونحن الآن من الناحية العملية نخضع لنظام ضريبي ثابت وموحد. وإذا سنحت لهم الفرصة فإنهم لن يترددوا في نقل العبء الضريبي إلى الطبقة الأقل حظاً من المجتمع والتي تشكل 80٪ من السكان. ومعظم السياسات الرامية إلى ذلك هي في موضع التنفيذ، وقد أجلت لعدة سنوات، ولكنها ستعود خلال ثلاثة أو أربعة أعوام بعد تأمين فوزهم في الانتخابات القادمة ليستأنفوا تنفيذ هذه السياسات بشكل أكثر حدّة. ولكني أعتقد أن هذه البرامج واضحة جداً ويسهل على الشخص العادي تمييزها.

إن أفضل التحليلات لهذه السياسات تجدها في صحيفة نيويورك تايمز، وتحديداً في عمود بول كروغمان. ولا تحتاج إلى الذهاب إلى دوائر المعارضة اليسارية لتجد تحليلاً لتلك البرامج لأنها واضحة. إنهم ببساطة يريدون إلغاء القوانين التقدمية التي جاءت نتيجة نضال شعبي على مدى عقود من الزمن، لأن هذه التشريعات لم تكن في يوم من الأيام عطية من السلطة العليا. إنهم يسعون إلى إلغائها وتحويل البلاد إلى بلد طوبائي للسادة. ولا يمكنهم أن يكونوا أكثر صراحة ومجاهرة بذلك.

جيرمي إيرب: لماذا لا توجد معارضة مسموعة ضد سعي الحكومة إلى تقويض هذه البرامج؟ فهذه برامج تحظى بتأييد واسع. هل المسألة من وجهة نظرك تتعلق بتشتيت انتباه الناس نحو قضايا أخرى كي لا يعيروا هذه القضايا الانتباه الذي تستحقه؟ هل لهذا علاقة بكارل روف وغيره من العملاء السياسيين الذين يعرفون مغزى الخوف؟

من الوسائل التقليدية للتحكم بالشعوب هي ترويعهم. وهذه الوسيلة لم تخترع في الولايات المتحدة، وهي تستخدم على نطاق واسع. خذ مثلاً ألمانيا في الثلاثينيات. علينا أن نتذكر أن ألمانيا كانت تتربع على قمة الحضارة الغربية في ذلك الوقت. كانت في القمة في حقول الفن والعلوم والآداب. إن معظم إنجازات الحضارة الغربية حدثت في ألمانيا. فلو كنت ترغب بدراسة الفيزياء وكنت تسكن الولايات المتحدة، لكان عليك أن تتوجه إلى ألمانيا. كانت ألمانيا تشكل مجتمعاً ثقافياً مدنياً متقدماً. ولكن، وعن طريق الخوف، تحول الألمان إلى سفاحين متعطشين للدماء، وارتكبوا أبشع المجازر في تاريخ البشرية. كانوا فزعين ومرعوبين من أن الحضارة الألمانية سوف تدمّر بفعل هجوم موجه إليها على يد اليهود والبلشفيين. وهذا ليس المثال الوحيد في التاريخ.

واليوم تستخدم الأساليب ذاتها هنا في الولايات المتحدة، والناس لا يحبون هذا التشبيه. ولكن إذا كانوا لا يحبون ذلك، فإن عليهم أن يغيروا الأشياء، لا أن يعترضوا على الحقائق. لقد استطاعت حكومة ريغان، على سبيل المثال، تنفيذ برامج أقل تطرفاً من برامج الحكومة الحالية، ولكنها مشابهة. لذلك، وفي عهد حكومة ريغان، تناقصت معدلات الأجور بالنسبة لغالبية السكان، ربما 70٪ أو 80٪ منهم، وتراجع دخل معظم الأسر، وبالتأكيد لم تتصاعد. وفي الوقت نفسه شهدت فئة صغيرة من المجتمع ثراءً فاحشاً. ولهذا السبب وصف محرر صحيفة وول ستريت جورنال سنوات حكم ريغان بالسنوات "السبع السمان". وقد كانت

حقاً كذلك بالنسبة له ولأصدقائه ولكن ليس بالنسبة لثمانين بالمائة من السكان. كيف استطاعوا البقاء في الحكم على الرغم من أن استطلاعات الرأي كانت تشير إلى معارضة شعبية لسياساتهم؟ كيف نجحوا في الانتخابات؟

فقط أنظر إلى ما حدث. كانوا يضغطون "زر الذعر" كل عام. أولاً، تم بث دعاية مفادها أن هناك مجموعة من الليبيين دخلوا سراً إلى الولايات المتحدة ويحومون حول واشنطن بهدف اغتيال قائدنا الشجاع الكاوبوي (راعي البقر). وجرى إحاطة البيت الأبيض بالدبابات لحمايته من القناصة الليبيين، وعمل اللازم لمنع ذلك. بعد ذلك جاءت غرينادا، والتي يصعب عليك أن تعينها في خارطة العالم. وتوالت الأنباء أن العاصمة العالمية لإنتاج جوزة الطيب تعمل على بناء قاعدة عسكرية لكي تستخدمها في توجيه ضربة ضد الولايات المتحدة، لذلك ارتعشنا خوفاً من غرينادا، وكان علينا أن نحتل تلك الجزيرة قبل أن تقضي علينا. وخرج الرئيس ريغان من البيت الأبيض ليعلن للشعب الأمريكي بعد الاجتياح:"إننا نقف اليوم شامخي الهامة لأننا نجحنا في التغلب على غرينادا". وحصل نحو 6 آلاف عنصر من أفراد القوات الخاصة على 8 آلاف وسام تقديراً على إنجازاتهم في تلك العملية.

وفي أكتوبر من عام 2002، وعندما أقر الكونغرس تشريعاً يمنح الرئيس حق استخدام القوة ضد العراق بسبب الخطر الذي يمثله ذلك البلد على الأمن القومي للولايات المتحدة، كان ذلك الإجراء مثار السخرية والضحك حول العالم. ولكن لم يشر أحد إلى أن الإعلان الصادر عن الكونغرس لم يكن سوى ترديداً لإعلان الطوارئ الوطني الذي أصدره الرئيس ريغان عام 1985. فقد أعلنت حالة الطوارئ العامة بسبب التهديد الذي تفرضه حكومة نيكاراغوا على الأمن القومي للولايات المتحدة، والتي تبعد مسافة يومين بالسيارة من آرلينغتون تكساس. وعلى حد تعبير وزير الخارجية شولتز، كان هؤلاء المردة في نيكاراغوا

يلوحون بنسخ كتاب "كفاحي"(*) مهددين بالتغلب علينا. وكان هذا الإعلان عن حالة الطوارئ يجدد سنوياً. وفي السنة التالية، عادت ليبيا مرة أخرى تهدد من جديد بإيقاع المصائب، وكان على الولايات المتحدة أن تشن هجوماً على ليبيا. وقد استاء الأوروبيون من الممارسات الأمريكية لأنهم يعتبرون أن ما يحدث في حوض البحر الأبيض المتوسط هو من شأنهم، وكانوا يحاولون إيقاف هؤلاء المجانين في البيت الأبيض.

وخلال انعقاد قمة طوكيو عام 1986 أو 1987(*) وزعت حكومة ريغان تقريراً يقول للأوروبيين ما معناه إما أن تتبعونا وإلا فإن الأمريكان المجانين سيمضون قدماً وحدهم ويسيطروا على كل شيء، ويسيروا الأمور بطريقتهم الخاصة. وهكذا أخضعوا أوروبا عن طريق التخويف إلى الانصياع لرغبتهم. وفي الوقت نفسه، استمرت هذه السياسة عاماً بعد عام أو من تهديد إلى آخر.

وتذكّر كيف نجح جورج بوش الأول في الانتخابات: حدث ذلك عندما استخدم كرت العرق. إما أن تصوّت لي وإما أن يغتصب المجرمون السود أختك. كانت تلك هي السمة البارزة في الانتخابات، وهي التي أدت إلى رفع نسبة الأصوات التي حصل عليها. وفي عام 1989 أعلنوا عن مرحلة ثانية من الحرب على المخدرات. وكانت الدعاية هذه المرة بأن مهربي وتجار المخدرات من الهسبانك(*) سيدمروننا ما لم نفعل شيئاً لحماية أنفسنا من هذا الهجوم الكاسح. وخلال أسبوعين، تصاعد الخوف من المخدرات من لا شيء إلى رأس قائمة الأمور التي تشغل بال الناس.

(*) السيرة الذاتية للزعيم الألماني أدولف هتلر والتي شرح فيها مبادئه الفلسفية وطموحاته السياسية لألمانيا.

(*) التاريخ الأول الذي ذكره المتحدث 1986 هو الصواب.

(*) يقصد بهذه التسمية الأشخاص الذين يعيشون في الولايات المتحدة وينحدرون من دول أمريكا اللاتينية التي تتحدث الإسبانية، وغالبيتهم من المكسيك و بورتوريكو و كوبا ودول أمريكا الوسطى.

obeikandl.com

الجريمة، المخدرات، الليبيون، النيكاراغويون، الغرينياديون، الإرهابيون العرب- كل هؤلاء يهاجموننا من جميع الجهات. لذلك، علينا أن ننكمش من الخوف تحت مظلة السلطة. وسوف يأتي الكاوبوي لينقذنا من هذا كله.

وعندما يقوم كارل روف باستخدام هذه الحيل نفسها، فإنه يقوم بتكرار معزوفة معهودة. وعلى كل معلق أن يشير إلى أن كل واحدة من هذه الحيل هي إعادة لمعادلة معروفة سبق أن استخدمت من قبل. وبإمكانك أن تسأل عن الأسباب، إلا أن حقيقة الأمر هي أن أمريكا دولة خائفة، وهذا يعود إلى ما قبل عهد إدارة ريغان. ومهما كان السبب، فإنه يوجد قدر كبير من الخوف في هذا البلد. خوف من الأجانب، خوف من الجريمة، خوف من الأمهات اللاتي يتلقين الإعانة من الحكومة، خوف من السود، خوف من الغرباء، خوف من كل نوع من الأشياء. ومن السهل استثارة هذا النوع من الخوف، كما حدث في دول أخرى. وتعد ألمانيا مثالاً ملفتاً لأنها كانت تتربع على قمة الحضارة الغربية. ولم يستغرق هتلر كثيراً من الوقت لتحويل الشعب الألماني إلى مجانين ساخطين. والشيء نفسه ينطبق على تاريخنا نحن هنا أيضاً.

كانت الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى دولة مسالمة، وكانت غالبية الشعب الأمريكي غير راغبة وغير مهتمة بالتورط في الحرب الداخلية الأوروبية، وهو موقف له مسوغاته العقلية. إلا أن إدارة ويلسون أوجدت أول وكالة متخصصة بالتوجيه والتضليل الإعلامي، وأول لجنة مشكلة من مجموعة شركات تختص بالمعلومات العامة. ولو كان جورج أورويل(*) حياً لأعجبته هذه الفكرة.

(*) كاتب و روائي وناقد بريطاني (1903-1950) اسمه الأصلي إريك آرثر بلير. ولد في الهند وتلقى تعليمه في بريطانيا. آثر الخدمة في صفوف الشرطة الإمبراطورية الهندية في بورما على الدراسة الجامعية (1922- 1927) وكانت تجربة غيرت حياته وحولته إلى مناضل سياسي. عاد إلى أوروبا وعاش فقيراً وأصبح اشتراكياً. ثم توجه إلى إسبانيا لتغطية الحرب الأسبانية الأهلية وبقي هناك بعد أن التحق بالميلشيات الجمهورية. وبعد تلك التجربة تولد لديه فزع شديد من الشيوعية لدرجة =

ونجحت وكالة التوجيه الإعلامي في تحويل الشعب الأمريكي إلى شعب متعصب مسعور معاد لألمانيا إلى الحد الذي جعل فرقة بوسطن الموسيقية لا تجرؤ على عزف مقطوعة (واغنر)؛ لقد أرادوا تدمير كل شيء ألماني. وهي وسيلة ناجحة. واليوم يصرّح كارل روف وجماعته بكل وضوح بأن هذا الأسلوب سيكون البرنامج الرئيسي للحكومة، ولم يجعلوا ذلك سراً، بل أعلنوه أمام الملأ.

وحسبك أن تلقي نظرة عندما يعقد الحزب الجمهوري مؤتمره العام. وبمحض الصدفة سيعقد هذا المؤتمر في مدينة نيويورك وقبيل ذكرى 11 سبتمبر. وطبعاً هذا ليس له أي علاقة بالمصادفة المحضة. لقد أفصحوا بشكل واضح من خلال أقوالهم وأفعالهم أنهم يريدون السيطرة على جمهور الشعب عن طريق الخوف.

ونجد أن هذه السياسة قد تفشت حول العالم. إلا أن الولايات المتحدة مارست هذه السياسة إلى حد الغلو. وهو أمر خطير بالنظر إلى حجم القوة الأمريكية. واستغل كل نظام يعتمد على القوة أحداث 11 سبتمبر كأداة من أدوات القمع. فقد استخدمته روسيا ذريعة لتكثيف جرائمها الجسيمة في الشيشان، فهي الآن تدافع عن نفسها ضد الإرهاب. وفعلت الصين الشيء نفسه في مقاطعاتها الغربية مضاعفة اضطهادها للأقليات المسلمة بحجة خطر الإرهاب، وفعلت إسرائيل الشيء نفسه في المناطق المحتلة لمحاربة الإرهاب، وليس لمصادرة أراضي الآخرين والاستيلاء على مواردهم المائية. وفعلت إندونيسيا الشيء نفسه. وبشكل عام، شرعت معظم الدول الأكثر ديمقراطية قوانين تحت هذه الذريعة

= أنه قدم إلى أجهزة الاستخبارات البريطانية قائمة باسماء زملائه الشيوعيين من البريطانيين. أشهر رواياته الساخرة: مزرعة الحيوانات (1945)، ورواية 1984 والتي كتبها عام 1948 ونشرت عام 1949 وهي رواية خيالية ساخرة حول الحكم الدكتاتوري للحزب الواحد. وقد حازت هذه الرواية على إعجاب الكثيرين خصوصاً بعد انتهاء الحرب الباردة.(عن الموسوعة البريطانية بتصرف).

تهدف إلى ضبط شعوبها. ولا تفوت الأنظمة التي تعتمد على القوة الفرص التي تسنح لها. وعليهم تحقيق تلك النتيجة. إنهم لا يتورعون عن استغلال زلزال لتحقيق ذلك الهدف، فكيف بأحداث 11 سبتمبر؟ سيكون الأمر أكثر سهولة بالنسبة لهم. نعم، لقد أثر هذا الحدث على الولايات المتحدة تأثيراً دراماتياً. وأثر بشكل آخر في أماكن أخرى حول العالم.

جيرمي إيرب: لنختم بموضوع الانتخابات. كيف ترد على الذين يقولون بأن هناك كثيراً من القوى الهيكلية المؤثرة هنا، وأن الرؤساء ما هم إلا شخصيات توضع في الواجهة، وأن الانتخابات الرئاسية أصبحت شيئاً بالياً. هل هناك شيء مما ذكرته حول هذه الإدارة يجعلها تختلف عن غيرها في هذا النمط من التقليد، ما مدى أهمية هذه الانتخابات؟

هذه المسائل تخضع لحكم الأفراد وقناعاتهم.والعوامل المؤسسية هي في غاية الأهمية، كما أن طيف الخيارات السياسية ضيق جداً. ولهذا السبب نجد سوابق في إستراتيجية الأمن القومي في حكومات كلينتون وكندي وغيرها من الحكومات الليبرالية. ونصت إدارة كلينتون في سياساتها الدفاعية العادية وبكل وضوح أن على الولايات المتحدة أن تلجأ إلى استخدام القوة وعلى نحو إنفرادي لحماية الأسواق والموارد. والحقيقة لو تأملت فيما قالوه فإن الأمر يتعدى إستراتيجية الأمن القومي، فهم لم يتحدثوا عن أي خطر. بينما تتحدث إدارة بوش عن خطر مفترض، أما إدارة كلينتون فكانت صريحة وواضحة، إنها السيطرة على الأسواق والموارد.

لذلك، أقول نعم، بإمكانك أن تعود إلى الوراء وتجد سوابق. إلا أن الزمرة الموجودة في البيت الأبيض الآن لها قبضة ضيقة على السلطة السياسية. إنهم يمسكون بالسلطة السياسية بخيط رفيع. وهم عصبة متعجرفة إلى أبعد الحدود،

إنهم مجموعة خطرة من الساسة الرجعيين. وهم ليسوا محافظين، بل رجعيون يؤمنون بالدولة التدخلية. وهم يسعون إلى إلغاء أي شكل من أشكال الدولة التقدمية. والهدف من وجود الحكومة في نظرهم هو لخدمة الأغنياء والأقوياء وليس لخدمة الشعب، وهم متطرفون في عزمهم على استخدام القوة والتهديد بالقوة بكل جرأة وعلانية لتحقيق أهدافهم الدولية. وأعتقد أن هذا في غاية الخطورة. ووضع مثل هذه المجموعة في الحكم لمدة أربع سنوات أخرى لن يكون في منتهى الخطورة وحسب، بل سيجعل من المستحيل إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، ولذلك فإن هذه الأمر غير عادي في هذا الجانب من وجهة نظري.

كامبريدج، ماسيتشيوستس

16 **يناير**، 2003

❀ ❀

obeikandl.com